عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الأولى: مدخل لعلم التصوف
الدرس الثاني: التصوف وفقه القلوب
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

التصوف وفقه القلوب

بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

الدين: عقيدةٌ وتربيةٌ وأحكام: قد تكون عقيدة المتدين سليمةً، ويكون بأحكام العبادات متمسكا، وتكون عباداته في ظاهرها صحيحة،... لكن، إذا لم يكن قلبه سليما وصالحا، تكون أعماله أقرب إلى النفاق والرياء... وصلاح القلوب وسلامتها مشروطة بتزكيتها وتربيتها تربيةً روحية لقوله تعالى: (قد افلح من زكاها)، وهي الوظيفة الأساسية التي بُعث بها النبي ﷺ لهذه الأمة؛ وهي الوراثة التي اختص بها الصوفية، فسمّوا طريقهم بطريق التزكية، وعِلمهم بفقه التزكية... والتزكية مجهود تربوي يُثمر حياة روحية وأخلاقية سامية...

ذكرت النصوص القرآنية والحديثية، العديد من الآفات القلبية التي تحول بين العبد وربه، وتحتاج إلى التزكية، ومنها: المرض، والقسوة، والغفلة، والكبر، والعُجب، والرياء، والعمى، والزيغ، والغل، والتطبع، والحسد،... في المقابل، ذكرت النصوص الدينية، القلوب المزكاة والعامرة بالمعاني الإيمانية التي سماها الله في كتابه: نورا، وضياءً، وخشوعا، واطمئنانا، وانشراحا، وخشية، وَوَجلا، وقربا،... فالقلب إذن هو محل الابتلاء والتمحيص وأصل الاستقامة ومنبع الصلاح والفساد لجميع الأعمال.

علم الفقه: لـمّا استقل عن باقي العلوم الشرعية الأخرى، تخصص في النظر في الأحكام الشرعية التي تتعلق بأعمال البدن للمكلَّفين، ولم يهتم ب»فقه القلوب»، ولا بالمسائل التي تتعلق بباطن الإثم ولا بطُرق علاجه..

علم التصوف: استقل هذا العلم، في الميراث الإسلامي كذلك، عن باقي العلوم الشرعية الأخرى، وتخصص في تزكية القلوب وإصلاحها وتطهيرها من الآفات، وإعمارها وتحليتها بأنواع الكمالات الإيمانية...؛ فيه قال الفقيه الأصولي الإمام الشاطبي [الاعتصام، 349/1]: «... هو فقه صحيح، وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة، إلا إذا أُطلق على فروع الفقه التي لم يُلْفَ مثلها في السلف الصالح أنها بدعة، كفروع أبواب السَّلَم، والإجارات، والجِراح، ومسائل السَّهو،... وما أشبه ذلك، وليس من شأن العلماء إطلاق لفظ البدعة على الفروع المستنبطة التي لم تكن فيما سلف، وإن دقَّت مسائلها، فكذلك لا يطلق على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة: أنها بدعة؛ لأن الجميع يرجع إلى أصول شرعية».

فيه قال ابن قيم الجوزية (طريق الهجرتين، 449/1) بأنه: «مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب، ولهذا سمي «علم الباطن» كما أن «علم الفقه» يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سموه «علم الظاهر»... والصوفي ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه، ومُفسدة لقلبه أو مُصحِّحة له».

وفيه قال الشيخ زروق في قواعده: «هو عِلمٌ قُصِدَ لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل...، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك».

ويؤكد ابن خلدون في شفاء السائل (ص 178) بأن الفقه على نوعين: «الأول: فقه الظاهر: وهو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال الجوارح... وهذا هو المسمى بالفقه في المشهور وحامله الفقيه، وهم أهل الفتيا.. النوع الثاني: فقه الباطن ومعرفة الأحكام المتعلقة بأفعال القلوب، وما يخص المكلف في نفسه ...، ويسمى هذا فقه القلوب وفقه الباطن وفقه الورع، وعلم الآخرة والتصوف».

بالفقه إذن تنضبط أعمل البدن للمكلفين، وبالتصوف تنضبط أعمال القلب؛ وادِّعاء التَّدَيُّن دون الاهتمام بآفات القلب والعمل على تقويمه ضرب من العبث.

مثال: الصلاة: هل هي حركات ميكانيكية فقط -وإن كانت سليمة وصحيحة في أدائها-؟ أمْ أنّ وراءَ هذه الصورة حياةٌ وروحٌ ومعنى؟ وهل هذه الحياة الروحية يُمكن أن تتأتى بدون التزكية؟

فالمسلم يتعلم أحكام الجوارح المتعلقة بالطهارة والصلاة وغيرها...، وعليه كذلك أن يتعلم أحكام القلوب لأهميتها في كل العبادات، إذ بصلاحها تصلح بقية الجوارح؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

قال السراج الطوسي في اللمع: «وليس التفقُّه في أحكام هذه الأحوال (القلوب) ومعاني المقامات... بأقلّ فائدة من التفقه في أحكام الطلاق... والحدود وغيرها، لأن تلك أحكامٌ ربما لا تقع في العمر إلا نادرا، فإذا وقعت فمن سأل عنها قلَّدَ في ذلك وأَخَذَ بقول بعض الفقهاء... أما أحوال القلوب التي يتفقه فيها الصوفية ويتكلمون في حقائقها، فالمومنون مفتقرون في كل وقت إلى ذلك،... فمن ترَك حالا من هذه الأحوال ما تركه إلا من غلبة الغفلة على قلبه».

معادلة سلوكية: أعمال المسلم الظاهرة –المنضبطة بالفقه– تتوقف في صحتها على صحة الأعمال الباطنة –المنضبطة بالتصوف– توقف المشروط في صحته على الشرط، والعكس؛ في ذلك قال الإمام مالك: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»، وقال الإمام الشافعي في ديوانه :

فقيهاً وصوفيّاً فكُن ليسَ واحداً **** فإني وحـــقِّ الله إيَّـــاك أنـصَـــحُ

فـــذاك قاسٍ لم يذق قلبُه تُقى **** وهذا جهول، كيف ذو الجهل يصلحُ